ضوابط الاستباط
من السيرة النبوية

إعداد

د. عبد الكريم عثمان علي

الاستاذ المشارك قسم التفسير وعلوم القرآن

كلية القران الكريم جامعة القاسمية - الكويت

ضوابط الاستنباط من السيرة النبوية

عبد الكريم عثمان علي .

قسم التفسيرو علوم القران – كلية القران- جامعة القاسمية- الكويت

الملخص:

السيرة النبوية هي التطبيق العملي للإسلام، في عقائده وعباداته ومعاملاته وأخلاقه، ومصادرها متعددة، ولها ارتباط خاص بكتاب الله وتفسيره، فالقرآن الكريم أوثق مصدر للسيرة، والسيرة من مصادر تفسيره، كما لها ارتباط واضح بالسنة النبوية، ولقد بدأ الاهتمام مبكراً جداً بتدوين السيرة النبوية لأهميتها، ونشأ هذا العلم موثق الصلات مع علم التفسير وعلم الحديث، إذ تشكل أسباب النزول وبعض سياقات القرآن الكريم، وأسباب ورود الحديث النبوي جزءا مقدرا من أحداث السيرة.

وهذا البحث يهتم في الأساس بقضية استنباط الأحكام من وقائع السيرة النبوية، وللوصول إلى ذلك استعرض البحث في المبحث الأول التعريف بعلم السيرة النبوية وعلاقته بالقرآن الكريم والسنة النبوية، إذ هما المصدران الأساسيان للتشريع، ثم عرض البحث في الفصل الثاني لموضوع الاستنباط وتعريفه وبيان شرعيته، وكيف دعا القرآن له ولأخذ العبر والدروس من الأحداث التاريخية، وفي المبحث الثالث الذي يمثل لب البحث وزبدته عُرضت قضية ضوابط الاستنباط من السيرة النبوية، ثم ختم البحث بخاتمة فيها أهم النتائج والتوصيات.

كلمات مفتاحية: السيرة–القرآن–السنة –ضوابط–الاستنباط

Controls of deduction from the biography of the Prophet

Abdul Karim Othman Ali
Department of Interpretation and Quranic Sciences - College of Quran - Al Qasimia University - Kuwait

Abstract
The Prophet's biography is the practical application of Islam, in its beliefs, worship, dealings, and morals. Its sources are multiple, and it has a special connection to the Book of God and its interpretation. The Holy Qur'an is the most reliable source of biography, and biography is one of the sources of its interpretation.
Interest began very early in writing down the Prophet's biography due to its importance, and this science emerged with strong links with The science of interpretation and the science of hadith, as the reasons for the revelation, some of the contexts of the Holy Qur'an, and the reasons for the occurrence of the Prophet's hadith form a significant part of the events of the biography.
This research is primarily concerned with the issue of deriving rulings from the facts of the Prophet's biography. To achieve this, the research is presented in the first section to introduce the science of the Prophet's biography and its relationship to the Holy Qur'an and the Sunnah of the Prophet, as they are the primary sources of legislation.

Key words: Sira - Qur'an - Sunnah - Controls - Deduction

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علي رسول الله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد

فالسيرة النبوية هي التطبيق العملي للإسلام، في عقائده وعباداته ومعاملاته وأخلاقه، ومصادره المتعددة، ولها ارتباط خاص بكتاب الله وتفسيره، فالقرآن الكريم أوثق مصدر للسيرة، والسيرة من مصادر تفسيره، ولقد بدأ الاهتمام مبكراً جداً بتدوين السيرة النبوية، ونشأ هذا العلم موثق الصلات مع علم التفسير وعلم الحديث، ثم نشأ علم فقه السيرة الذي يقوم على الاستنباط نتاجاً لتلاقح هذه العلوم من الفقه والأصول وغيرها، ويسعى هذا البحث لإلقاء الضوء على قضية الاستنباط من السيرة النبوية وبيان ضوابطه؛ لتخرج عملية الاستنباط بصورة سليمة لا تتعارض مع مقاصد الشريعة وهدايات القرآن الكريم، ومن هنا تظهر أهمية البحث.

أهمية البحث: تظهر أهمية البحث في محاولة البحث عن ضوابط لعملية الاستنباط من السيرة النبوية، وهو مجال تعددت فيه الممارسات، وتشعبت فيه الاجتهادات.

أهداف البحث: يهدف البحث لتجلية ضوابط الاستنباط من السيرة النبوية.

مشكلة البحث: السيرة النبوية تمثل التطبيق العملي للإسلام، وحياة الناس في مختلف المجالات في حاجة للإفادة من هدي النبي ﷺ والاقتداء به، فلا بد من ضوابط لهذه العملية

أسئلة البحث:

١- ما علاقة السيرة النبوية بالقرآن والسنة؟

٢- ما هو الاستنباط، وهل وجد الاستنباط من السيرة اهتماما عند العلماء الأوائل؟

٣- ما ضوابط الاستنباط من السيرة النبوية؟

سبب اختيار الموضوع: تتعلق السيرة النبوية بجوانب الحياة المختلفة، ابتداءً من العقيدة وانتهاءً بالسلوك مروراً بالقضايا السياسية والاجتماعية والتربوية والعسكرية والاقتصادية وغيرها، وهذه كلها مجالات للاستنباط، فمن المفيد والمهم بيان ضوابط الاستنباط في هذا المجال.

منهج البحث: المنهج الاستقرائي الوصفي التحليلي.

الدراسات السابقة:

كثيرة هي الدراسات التي قدمت حول السيرة النبوية، ومن الدراسات التي اهتمت بموضوع الاستنباط من السيرة النبوية:

١- من جهود العلماء في الاستنباط من السيرة النبوية -تصرفات الرسول ﷺ أنموذجاً، للدكتور بنعمر الخصاصي، قدم للمؤتمر العالمي الأول للباحثين في السيرة النبوية، المغرب، وركز فيه صاحبه على تصرفات الرسول ﷺ

٢- الأبعاد المقاصدية للاستمداد من السيرة النبوية، للدكتور: الأمين إقريوار، بحث منشور في نجلة المدونة، السنة السادسة العدد ٢٣، يناير ٢٠٢٠م، وركز فيه على علاقة علم السيرة بعلم المقاصد، من حيث أثر المقاصد في فهم السيرة، وأهم مقاصد الاستمداد من السيرة النبوية.

٣- ضوابط استخراج الدروس والفوائد التربوية من السيرة، محمد بن صامل السلمي، منشور في مجلة البيان -العدد: ١٥٩، ذو القعدة

١٤٢١ –فبراير ٢٠٠١م واقتصر فيه على بعض الضوابط لاستنباط الفوائد التربوية.

خطة البحث: اقتضت طبيعة البحث أن يقسم الي مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة على النحو التالي:

المقدمة: ذكرت فيها أهداف البحث ومنهجه والدراسات السابقة وخطته

المبحث الأول: تعريف السيرة وعلاقتها بالقرآن الكريم والسنة النبوية.

المبحث الثاني: الاستنباط تعريفه وشرعيته.

المبحث الثالث: ضوابط الاستنباط في فقه السيرة النبوية

الخاتمة وفيها أهم النتائج والتوصيات

المبحث الأول: تعريف السيرة وعلاقتها بالقرآن الكريم والسنة النبوية.

تعريف السيرة لغة واصطلاحا:

السيرة من السير، وأصله السين والياء والراء، قال ابن فارس: "السِّينُ وَالْيَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى مُضِيٍّ وَجَرَيَانٍ، يُقَالُ: سَارَ يَسِيرُ سَيْرًا، وَذَلِكَ يَكُونُ لَيْلًا وَنَهَارًا. وَالسِّيرَةُ: الطَّرِيقَةُ فِي الشَّيْءِ وَالسُّنَّةِ، لِأَنَّهَا تَسِيرُ وَتَجْرِي. يُقَالُ سَارَتْ، وَسِرْتُهَا أَنَا"[1]

وقال ابن منظور: "والسِّيْرَةُ: السُّنَّةُ، ... والسِّيرَةُ: الطَّرِيقَةُ. يُقَالُ: سارَ بِهِمْ سِيْرَةً حَسَنَةً، والسَّيرَةُ: الهَيْئَةُ."[2]، ويظهر من المعنى اللغوي أن كلمة (السيرة) تطلق على السير الحسي بكل أنواعه سواء كان سيرا أو جريانا، كما تطلق على السير المعنوي المكون لهيئة الشخص، قال الراغب: "والسِّيرَةُ: الحالة التي يكون عليها الإنسان وغيره، غريزيّا كان أو مكتسبا، يقال: فلان له سيرة حسنة، وسيرة قبيحة"[3]، وقال الكفوي: "السِّيرَة: (فعلة) من السّير، تجوّز بهَا للطريقة والهيئة"[4]، وقال النووي: قولهم كتاب السير

---

[1] معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.

[2] لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، ابن منظور (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط ٣، ١٤١٤هـ، ج٤، ص ٨٨٩ – ٨٩٠.

[3] المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى(ت ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ، ص ٤٣٣

[4] الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الكفوي (ت ١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش –محمد المصر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص ٥١٤.

هو بكسر السين وفتح الياء جمع سيرة وهي الطريقة، قال الرافعي: يقال إنها من سار يسير، وترجموه بكتاب السير لأن الأحكام المذكورة فيه متلقاة من رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته، ومقصودهم به الكلام في الجهاد وأحكامه، وترجمه بعضهم بكتاب الجهاد، وترجمه في التنبيه بباب قتال المشركين"[٥]

المعنى الاصطلاحي للسيرة النبوية:

إذا نظرنا إلى المؤلفات في السيرة النبوية فلا شك أنها تعنى بحياة النبي ﷺ، ولكن المؤلفات المعروفة في هذا الفن تفاوتت مناهجها وأساليبها في تناول الموضوع، فمنها ما ركز على المغازي والسير، وهذا هو العنوان الذي كان سائدا في بداية التأليف في السيرة النبوية، ومنها ما زاد على ذلك بذكر جوانب أخرى زيادة على المغازي والسير، ويمكننا القول إنه تم التعامل مع السيرة النبوية على مستويين، المستوى الأول تم فيه تناول السيرة النبوية ضمن كتب السنة، والمستوى الثاني تم فيه تناول موضوعات السيرة النبوية في كتب المغازي والسير والشمائل والدلائل، وهناك فرق واضح بين تناول السيرة في كتب الحديث وكتب المغازي، ففي كتب الحديث العناية واضحة بصحة الحديث ودراسة الرجال، ولكن كتب الحديث لم تغط جميع الجوانب في السيرة النبوية فاحتاجت لتكميل النقص في المعلومات من كتب المغازي التي لم تحفل كثيرا بتصحيح الروايات بنفس المنهجية المتبعة في علم الحديث.

---

[٥] تهذيب الأسماء واللغات، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ج١ من ق ٢ ص١٥٨

ويمكننا تعريف السيرة بأنها العلم الذي يدرس "حياة النبي منذ ظهور الإرهاصات التي مهدت لرسالته وما سبق مولده من سمات تلقي أضواء رحمانية على طريق الدعوة المحمدية، ومولده ونشأته حتى مبعثه، وما جاء بعد ذلك من دعوة الناس إلي الدين الحنيف، وما لقي في سبيل نشر الإسلام من معارضته، وما جري بينه عليه الصلاة والسلام وبين من عارضوه من صراع بالقول والسيف، وذكر من استجاب له حتى علت راية الحق[٦]

علاقة السيرة بالقرآن وبالسنة:

إذا تأملنا في التعريف السابق للسيرة النبوية فيمكننا ملاحظة أن كثيرا من هذه القضايا وردت الإشارة إليها في كتاب الله الكريم الذي يمثل المصدر الأول والأهم للسيرة النبوية، وبعض هذه الإشارات ورد مفصلاً وبعضها مجملاً حسب ما يقتضي الحال والسياق القرآني، ولابد من ملاحظة أن هذه الإشارات القرآنية جاءت شاملة لجانب المعتقد والعمل في الظاهر والباطن، أي أعمال الجوارح والقلوب، وهذا بحد ذاته يعتبر أساسا متينا لا يتوفر إلا في رحاب القرآن الكريم، لأن النصوص القرآنية التي تناولت السيرة لها ميزات خاصة؛ فعدد مقدر من آيات القرآن الكريم تحدثت مباشرة عن أحداث السيرة، وجاء ذلك متفاوتا بين الإجمال والتفصيل لحكمة يعلمها الله، لكن كل ذلك ظل محتاجاً لمعرفة مناسبة النزول ومكانه وأشخاصه والعبرة منه، مما جعل من أحداث السيرة نفسها مصدراً مهماً لتفسير القرآن الكريم،

---

[٦] السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٥م، تحقيق: طه عبد الرازق سعد: ص٥.

وهنا تظهر علاقة تكاملية بينهما، فالقرآن مصدر للسيرة النبوية، والسيرة النبوية مصدر لتفسير وفهم القرآن الكريم ،"وفقه القرآن الكريم يتوقف علي فقه حياة النبي ﷺ وسنته، وفقه حياته ﷺ يتوقف علي القرآن، وفقه الإسلام يتوقف علي فقههما"[١]، ولا يعني هذا الكلام أن كتب التفسير تعد كتبا للسرة النبوية إنما أردنا من هذا الكلام تبيين أن القرآن الكريم هو المصدر الأول والأقوى للسيرة النبوية، وبعد القرآن الكريم تأتي كتب الحديث الشريف التي ضمت على مختلف مسمياتها معلومات وافرة عن سيرة الرسول ﷺ، وكما هو معروف فإن كتب الحديث تتفاوت في الرتبة وفي شروط قبول الأحاديث؛ وبالتالي فإن ما ورد في الصحيحين مقدم على غيرهما وهكذا.

ويُعرِّف العلماء السنة بعدة تعاريف حسب المنطلق العلمي الذي ينطلقون منه، فالأصوليون يعرفونها بأنها: ما صدر عن النبي ﷺ غير القرآن من الأقوال والأفعال، والمحدِّثون يعرفونها بأنها: ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو صفة خَلْقية أو خُلُقية، وما يتصل بالرسالة من أحواله الشريفة قبل البعثة ونحو ذلك[٢]، وعلاقة السيرة بالسنة "علاقة عموم وخصوص من عدة أوجه، فتتوافقان في مواضيع، وتنفرد كل منهما بخصائص؛ فتجتمعان في بيان صفاته ﷺ ودلائل نبوته وأحداث حياته، وما أشبه، وتنفرد السنة بأحاديث الأحكام، والأقوال التي لا تتعلق بحادثة معينة،

---

[١] الدرر الغالية في آداب الدعوة والداعية، عبد الحميد بن باديس، (ت ١٣٥٩هـ)، دار المنار للنشر والتوزيع، الرياض، ص ٥٧.

[٢] أفعال الرسول ودلالتها على الأحكام الشرعية، د. محمد الأشقر، مؤسسة الرسالة، ط٥، ١٩٩٦م، ج١، ص١٨

كالمواعظ والحض على الفضائل والآداب، وأحاديث البيوع والتجارات والربا، وما ماثل، وتنفرد السيرة بتواريخ الأحداث ومواقعها، وأعداد شهودها، والحديث عن الإرهاصات التي سبقت المولد، وأحداث الميلاد، والحديث عن خدمه وفرسه، وما شابه ذلك"[٣]

ويلخص الشيخ اليوسي العلاقة بين السنة والسيرة فيقول عن السيرة: "هي العلم الباحث عن أحوال النبي ﷺ من أول مبعثه إلى أن توفاه الله تعالى وهذا هو مؤدى لفظ السيرة؛ لأن السيرة فعلة من السير وسيرة الإنسان الهيئة التي يسير عليها في أفعاله وأقواله وأخذه وتركه، وقد أدرجوا فيه أحواله ﷺ من لدن وضع بل من لدن كان حملا ثم ترقوا إلى ذكر والديه وأجداده ثم إلى القبائل المتشعبة من ذلك وذكر بلده الكريم والبيت الحرام ومن بناه ومن تولاه قديما ومن زاره من الملوك ومن احترمه ونحو ذلك وقد يزيدون سيرة الخلفاء بعده وقد يفردون لما وقع من الحروب ذكرا وهو علم المغازي، فيقال: علم المغازي والسير، وقد يعتبر خصوص أحوال النبي ﷺ في خلقته الكريمة وأخلاقه العظيمة ومأكله وملبسه ونحو ذلك وهو علم الشمائل، فهذه فنون ثلاثة زائدة على متن الحديث المراد منه أقوال النبي و أفعاله وتقاريره، وهي في المعنى منه، ولو اعتبر أولا معنى الحديث من حيث الرواية لا الدراية وهو فن؛ لكانت فنون الحديث خمسة، وكونها اشتملت على ما ليس من أقواله ﷺ وأفعاله مما لغيره لا يضر؛ لأن الحديث

---

[٣] علاقة السيرة النبوية بالسنة، عبدالهادي الخمليشي، مجلة الواضحة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار الحديث الحسنية للدراسات الإسلامية العليا، العدد: ٨، من ص ٧٧-١١٥.

أيضا مشتمل على الآثار مما للسلف من قول أو فعل غير؛ أنه لولع الناس بحكايات الغرائب وأخبار الوقائع كثر في السيرة الغث والسمين وما لا يرضاه المحدثون وناسب أن يكون فنا مستقلا يتساهل بما لا ينبني عليه حكم شرعي منه"[١].

أما التأليف في السيرة النبوية فقد بذل العلماء رحمهم الله جهداً كبيراً في تدوينها وتفصيل أحداثها، ولقد بدأ الاهتمام بتدوين السيرة النبوية مبكراً جداً، وترجع البدايات في ذلك لنهايات القرن الهجري الأول، ثم تطور التأليف فيها شيئاً فشيئاً، ويعد ابن هشام الذي روي جزءا مقدراً من مؤلفات ابن اسحق المتوفي في سنة ١٥٢هـ، محطة مهمة في التأليف في السيرة النبوية، وكل هذه الجهود الأولي كانت تعني برواية الحدث دون الخوض في أي عملية تحليل أو قياس أو ما عرف فيما بعد بفقه السيرة، فإذا كانت السيرة النبوية تعني بالروايات والتفاصيل؛ فإن هناك عملاً آخر يبني علي هذه الروايات ألا وهو فقه هذه السيرة، وإذا كان القرآن الكريم قد أرشد للتدبر والنظر والاستنباط والقياس، فإن الوقوف عند روايات السيرة دون فقهها واستنباط الأحكام منها يعد تعطيلاً لثروة علمية عظيمة يحتاجها الناس في حياتهم المتجددة علي مر الأيام والدهور، ولكن هذا التأمل والنظر المؤدي للاستنباط لا بد له من ضوابط.

---

[١] القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم، الحسن بن مسعود اليوسي (ت ١١٠٢هـ)، تحقيق: حميد حماني، مطبعة سالا، الرباط، ط١، ١٩٩٨م، ص٨٠-٨١

المبحث الثاني: الاستنباط؛ تعريفه وشرعيته:

الاستنباط في اللغة: قال ابن فارس: "النُّونُ وَالْبَاءُ وَالطَّاءُ كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى اسْتِخْرَاجِ شَيْءٍ. وَاسْتَنْبَطْتُ الْمَاءَ: اسْتَخْرَجْتُهُ، وَالْمَاءُ نَفْسُهُ إِذَا اسْتُخْرِجَ نَبَطَ."[٢]

وقد ورد لفظ الاستنباط كثيرا في كلام العلماء، وأكثر ما رود منه متعلق بالقرآن الكريم، وخاصة بما له صلة بالأحكام، وقد يكون الاستنباط من الحديث النبوي أيضا فيما له صلة بالأحكام، ولكن الأحكام التي نتكلم عنها في الاستنباط لا تقتصر على الأحكام الفقهية، فقد يكون الاستنباط في العقائد أو في التربية والسلوك، أو في الآداب الاجتماعية أو غيرها، وبناء على هذا تعددت تعريفات العلماء للاستنباط، فالزمخشري يقول هو "ما يستخرجه الرجل بفضل ذهنه من المعاني والتدابير فيما يعضل ويهم"[٣]، وقال النووي: هو: "استخراج ما خفي المراد به من اللفظ"[٤].

والاستنباط من القرآن الكريم ومن حديث النبي ﷺ وجد حظه من الاهتمام بحكم تقدم هذين المصدرين على غيرهما من مصادر التشريع، لكن الاستنباط من السيرة النبوية لم يجد حظه من التقنين والاهتمام، فالسيرة النبوية نشأت مهتمة بسرد الأحداث التاريخية دون الخوض في دلالتها على

---

[٢] معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، ج٥، ص٨٨١

[٣] الكشاف، جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري (٥٣٨هـ)، دار الريان للتراث، القاهرة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٩٨٧م، ج١، ص٥٤١.

[٤] تهذيب الأسماء واللغات، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٤، ص١٥٨.

الأحكام، ولكن بمرور الوقت وتطور التأليف بدأ العلماء يتكلمون عن تعلق السيرة بالاستنباط، وهنا لا بد من الإشارة إلى أننا نتكلم عن كتب السيرة النبوية بصورة عامة، وعن مادة وموضوعات السيرة التي يمكن أن توجد في تفسير القرآن الكريم من خلال أسباب النزول وما شابهها، ومن خلال أسباب ورود الحديث وما شابهها، وغيرها من مصادر السيرة، وإذا توقفنا عند أسباب النزول كمثال فسنجد أنفسنا أمام ثروة هائلة من المعلومات المتعلقة بالسيرة النبوية المتعلقة بأقوى مصدر لها وهو القرآن الكريم، ولا شك أن أسباب النزول تشكل مادة لاستنباط الأحكام، قال السيوطي رحمه الله: "زعم زَاعِمٌ أَنَّهُ لَا طَائِلَ تَحْتَ هَذَا الْفَنِّ لِجَرَيَانِهِ مَجْرَى التَّارِيخِ، وَأَخْطَأَ فِي ذَلِكَ بَلْ لَهُ فَوَائِدُ مِنْهَا مَعْرِفَةُ وَجْهِ الْحِكْمَةِ الْبَاعِثَةِ عَلَى تَشْرِيعِ الْحُكْمِ، وَمِنْهَا: تَخْصِيصُ الْحُكْمِ بِهِ عِنْدَ مَنْ يَرَى أَنَّ الْعِبْرَةَ بِخُصُوصِ السَّبَبِ، وَمِنْهَا: أَنَّ اللَّفْظَ قَدْ يَكُونُ عَامًّا وَيَقُومُ الدَّلِيلُ عَلَى تخصصه؛ فَإِذَا عُرِفَ السَّبَبُ قَصُرَ التَّخْصِيصُ عَلَى مَا عَدَا صُورَتَهُ فَإِنَّ دُخُولَ صُورَةِ السَّبَبِ قَطْعِيٌّ وَإِخْرَاجُهَا بِالَاجْتِهَادِ مَمْنُوعٌ كَمَا حَكَى الْإِجْمَاعَ عَلَيْهِ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ فِي التقريب ولا التفات إِلَى مَنْ شَذَّ فَجَوَّزَ ذَلِكَ. وَمِنْهَا: الْوُقُوفُ عَلَى الْمَعْنَى وَإِزَالَةُ الْإِشْكَالِ قَالَ الْوَّاحِدِيُّ: لَا يُمْكِنُ تَفْسِيرُ الْآيَةَ دُونَ الْوُقُوفِ عَلَى قِصَّتِهَا وَبَيَانِ نُزُولِهَا، وَقَالَ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدُ: بَيَانُ سَبَبِ النُّزُولِ طَرِيقٌ قَوِيٌّ فِي فَهْمِ مَعَانِي الْقُرْآن، وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَةَ: مَعْرِفَةُ سَبَبِ النُّزُولِ يُعِينُ عَلَى فَهْمِ الْآيَةِ فَإِنَّ الْعِلْمَ بِالسَّبَبِ يُوَرِّثُ الْعِلْمَ بِالْمُسَبَّبِ."[١]

---

[١] الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية، ١٩٧٤م، ج١، ص١٠٨.

وقال الشاطبي في الموافقات: "وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ؛ فَقَالَ: تَرَكْتُ فِي الْمَسْجِدِ رَجُلًا يُفَسِّرُ الْقُرْآنَ بِرَأْيِهِ، يُفَسِّرُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾، الدخان: ١٠؛ قَالَ: يَأْتِي النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ دُخَانٌ، فيأخذ بأنفاسهم، حتى يأخذهم منه كَهَيْئَةِ الزُّكَامِ، فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: مَنْ عَلِمَ عِلْمًا فَلْيَقُلْ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلْ: اللَّهُ أَعْلَمُ؛ فَإِنَّ مِنْ فِقْهِ الرَّجُلِ أَنْ يَقُولَ لِمَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ: اللَّهُ أَعْلَمُ، إِنَّمَا كَانَ هَذَا لِأَنَّ قُرَيْشًا لما اسْتَعْصَوْا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ دَعَا عَلَيْهِمْ بِسِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ؛ فَأَصَابَهُمْ قَحْطٌ وَجَهْدٌ حَتَّى أَكَلُوا الْعِظَامَ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ مِنَ الْجَهْدِ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾، الدخان: ١٠، إلى آخر القصة"، وهذا شَأْنُ أَسْبَابِ النُّزُولِ فِي التَّعْرِيفِ بِمَعَانِي الْمُنَزَّلِ، بِحَيْثُ لَوْ فُقِدَ ذِكْرُ السَّبَبِ؛ لَمْ يُعْرَفْ مِنَ الْمُنَزَّلِ مَعْنَاهُ عَلَى الْخُصُوصِ، دُونَ تَطَرُّقِ الِاحْتِمَالَاتِ وَتَوَجُّهِ الْإِشْكَالَاتِ"[٢]

أما أسباب ورود الحديث فهو "ما ورد الحديث متحدثا عنه أيام وقوعه، ومنزلة هذا الفن من الحديث كمنزلة أسباب النزول من القرآن الكريم، وهو طريق قوي لفهم الحديث، لأن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب"[٣]، وهذه المسألة من مهمات المسائل في فهم خطاب الشارع عموما وفي استنباط الأحكام من السيرة النبوية على وجه الخصوص، لأنه

---

[٢] الموافقات، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي (ت ٧٩٠هـ)، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، السعودية، ط١، ١٩٩٧م

[٣] منهج النقد في علوم الحديث، الدكتور نور الدين عتر، دار الفكر، دمشق، ط٣، ١٩٨١م، ص ٣٣٤

لا سبيل إلى معرفة مراد المتكلم إلا بالاطلاع على القرائن والأحوال التي تحف بالخطاب، قال ابن عاشور: "وبذلك لم يستغنِ المتكلمون والسامعون عن أن تحف بالكلام ملامحُ من سياق الكلام ومقام الخطاب، ومبيّناتٌ من البساط، لتتظافر تلك الأشياءُ الحافة بالكلام على إزالة احتمالاتٍ كانت تعرض للسامع في مراد المتكلم من كلامه؛ ولذلك تجدُ الكلامَ الذي شافه به المتكلم سامعيه أوضح دلالة على مراده من الكلام الذي بَلَّغَه عنه مبلَّغ، وتجد الكلامَ المكتوب أكثرَ احتمالاتٍ من الكلام المبلّغ بلفظه بله المشافه به؛ من أجل فقده دلالة السياق وملامح المتكلّم والمبلّغ، وإن كان هو أضبط من جهة انتفاء التحريف والسهو والتصرف في التعبير عن المعنى عند سوء الفهم"[٤]، ويقول رحمه الله: "تتفاوت مراتب الفقهاء في عملهم؛ فهم جميعاً في الصدر الأول لم يستغنوا على استقصاء تصرّفات الرسول – صلى الله عليه وسلم – ولا عن استنباط العلل، وكانوا في عصر التابعين وتابعيهم يشدّون الرحال إلى المدينة ليتبصّروا من آثار الرسول ﷺ وأعماله وعمل الصحابة ومن صحبهم من التابعين"[٥]، والنظر في مصادر السيرة النبوية مختلف لأن ما ورد منها القرآن الكريم وصحيح السنة أقوى مما ورد في الروايات التاريخية التي لم تجد حظها من النقد والتصحيح سندا ومتنا، ولذلك يقول الحافظ العراقي:

---

[٤] مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (١٣٩٣هـ)، تحقيق: محمد الحبيب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ٢٠٠٤م، ج١، ص٨٠-٨١

[٥] المرجع السابق، ج٢، ص ٢٥٦

وليعلم الطالب أن السِّيرا *** تجمع ما صحّ وما قد أنكرا"[1]

أما الاستنباط من أحداث السيرة في كتبها فيمكننا أن نشير إلى كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض الذي ورد عنده كثير من الاستنباطات خاصة في المسائل العقدية، ومن ذلك قوله وهو يعلق على كلام الله تعالى له ﷻ: "وكلام الله تعالى لنبيه محمد ﷺ وأنبيائه عليهم السلام جائز غير ممتنع عقلا ولا ورد في الشرع قاطع يمنعه؛ فإن صح في ذلك خبر اعتمد عليه، وكلامه تعالى لموسى كائن حق مقطوع به نص ذلك في الكتاب وأكده بالمصدر دلالة على الحقيقة، ورفع مكانه على ما ورد في الحديث في السماء السابعة بسبب كلامه، ورفع محمدا فوق هذا كله حتى بلغ مستوى وسمع صريف الأقلام، فكيف يستحيل في حق هذا أو يبعد سماع الكلام؟"[2]، وينبه الإمام السهيلي إلى أنه سيقف عند المواضع الفقهية في السيرة النبوية، مما يعد إقرارا منه لمنهج الاستنباط الفقهي من السيرة النبوية، فيقول رحمه الله: "وَبَعْدُ فَإِنّي قَدْ انْتَحَيْت فِي هَذَا الْإِمْلَاءِ بَعْدَ اسْتِخَارَةِ ذِي الطّوْلِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِمَنْ لَهُ الْقُدْرَةُ وَالْحَوْلُ إلَى إيضَاحِ مَا وَقَعَ فِي سِيرَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ... مِنْ لَفْظٍ غَرِيبٍ، أَوْ إعْرَابٍ غَامِضٍ، أَوْ كَلَامٍ مُسْتَغْلِقٍ، أَوْ نَسَبٍ عَوِيصٍ، أَوْ مَوْضِعِ فِقْهٍ يَنْبَغِي التّنْبِيهُ عَلَيْهِ"[3]، ولابن

---

[1] العجالة السنية على ألفية السيرة النبوية، زين الدين محمد عبد الرؤوف المناوي (ت ١٠٣١هـ)، تحقيق: دار الكتب العلمية، بيروت، ص١٥

[2] الشفا بتعريف حقوق المصطفى، أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤هـ)، دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٨م، ج١، ص٢٠٣

[3] الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، بو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (ت ٥٨١هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ، ج١، ص٣٢.

القيم جهد واضح ومميز في استنباط الأحكام من السيرة النبوية، وذلك في كتابه القيم –زاد المعاد في هدي خير العباد–، ومن أمثلة ذلك قوله في غزوة أحد: "فصل فيما اشتملت عليه هذه الغزاة من الأحكام والفقه"[٤]، وفي العصر الحديث نشطت حركة بحثية تحت عنوان – فقه السيرة النبوية– وتعددت فيها المناهج والكتابات وظهرت فيها مؤلفات ذات اتجاهات فكرية محددة، فمن المؤلفين من اتبع المنهج المعروف عند علماء السيرة بسرد الأحداث التاريخية وفق تسلسلها الزمني مع التركيز على استنباط الدروس والعبر والأحكام، ومنهم من انتهج طريقا آخر وهو التركيز على جانب من جوانب السيرة النبوية مما له تعلق بحياتنا المعاصرة كالجانب العسكري أو السياسي أو الاجتماعي أو غيرها، وهذا يشبه التفسير الموضوعي للقرآن الكريم إذ تتم فيه دراسة موضوع محدد من السيرة النبوية ومن ثم تستخلص العبر والفوائد، وإذا كان كذلك فإن هذا الأمر يعزز من ضرورة البحث عن ضوابط للاستنباط من السيرة النبوية، يقول البوطي رحمه الله: "أما عملية استنباط النتائج والأحكام والمبادئ والمعاني من هذه الأخبار– بعد القبول التام لها – فعمل علمي آخر لا شأن له بالتاريخ، وما ينبغي أن يمزج به بحال من الأحوال، إنه عمل علمي متميز ومستقل بذاته، ينهض بدوره علي منهج وقواعد أخري من شأنها أن تضبط عملية استنباط النتائج والمبادئ من تلك الأحداث ضمن قالب علمي يقصيها عن سلطان الوهم وشهوة الإرادة

---

[٤] زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط ٢٧، ١٩٩٤مج٣، ص١٨٩.

النفسية، التي يعبر عنها أمثال وليم جيمس بإرادة الاعتقاد، من هذه القواعد القياس الاستقرائي، وقانون الالتزام بأنواعه المختلفة والدلالات بأنواعها ... الخ ، ولقد استنبطت من أحداث السيرة النبوية طبقاً لهذه القواعد أحكام كثيرة منها ما يتعلق بالاعتقاد واليقين ومنها ما يتعلق بالتشريع والسلوك[٥]، وقد لاحظت أن كثيرا ممن كتب في فقه السيرة لم يؤصل لفكرة الاستنباط من السيرة النبوية، فتراهم يدخلون مباشرة في موضوعات السيرة وفق الترتيب المعروف عند علماء السير دون الوقوف عند الاستنباط وضوابطه ولا بيان المنهج الذي يسلكونه في ذلك.

إن فقه السيرة ينبغي أن يتجاوز الدلالة الاصطلاحية المعروفة لكلمة (الفقه) التي تنحصر في العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية، ليكون البحث في هذا الموضوع علي ضوء الدلالة اللغوية الدالة علي فهمٍ يحتاج إلي إعمال فكر وبعد نظر ودراية تامة بالنصوص ودلالاتها ومقاصدها، وبذلك نستطيع أن نوسع دائرة البحث في فقه السيرة لتشمل جميع مفردات الحياة، فالتربويون والدعاة والعسكريون والاقتصاديون وعلماء الاجتماع وغيرهم، جميعهم يحتاج لفقه السيرة كل في مجاله، وحياتنا اليوم مع التطور المذهل والسريع والتداخل الثقافي عبر الفضاءات المفتوحة أحوج ما تكون لفقه السيرة ضابطاً وموجهاً وحامياً ومنافحاً بل ومؤثراً.

دعوة القرآن الكريم للاستنباط ولإفادة العبر والدروس من الحوادث والسير؟

---

[٥] فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط١١، ١٩٩١م: ص٢١

القرآن الكريم كتاب معجز في أسلوبه ومضامينه ومعانيه، وقد اشتمل كتاب ربنا على موضوعات تجل عن الحصر في مثل هذه الأبحاث، لكن مما لا جدال فيه أن القرآن الكريم أفرد مساحة واسعة للحديث عن سيرة رسول الله ﷺ، كما دعا القرآن الكريم للاستنباط بأساليب وطرق متعددة، نلخصها في النقاط التالية:

أولاً: الدعوة إلى الاستنباط:

أنزل الله تعالي كتابه هداية للناس، فلذلك أمر بتدبره في أكثر من آية، والتدبر هو "تفهم معني ألفاظه والتفكر فيما تدل عليه آياته مطابقة، وما دخل في ضمنها وما لا تتم تلك المعاني إلا به، مما لم يعرج اللفظ ذكره من الإشارات والتنبيهات وانتفاع القلب بذلك بخشوعه عند مواعظه وخضوعه لأوامره وأخذ العبرة منه"[١]، وواحدة من ثمرات التدبر عملية الاستنباط، قال تعالي: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، النساء :٨٣، قال الألوسي: "وكَلِمَةُ (مِن) إمّا ابْتِدائِيَّةٌ، والظَّرْفُ لَغْوٌ مُتَعَلِّقٌ بِـ (يَسْتَنْبِطُونَهُ)، وإمّا تَبْعِيضِيَّةٌ أوْ بَيانِيَّةٌ تَجْرِيدِيَّةٌ، والظَّرْفُ حالٌ، ووُضِعَ المَوْصُولُ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ في الِاحْتِمالَيْنِ الأخِيرَيْنِ لِلْإيذانِ بِأنَّهُ يَنْبَغِي أنْ يَكُونَ القَصْدُ بِالرَّدِّ اسْتِكْشافُ

[١] تدبر القرآن الكريم، سلمان بن عمر السنيدي، الرياض، ط٢، ٢٠٠٢م، ص١١

المَعْنى واسْتِيضاحُ الفَحْوى"[٢]، "وفَحْوَى القَوْل مَعناه ولَحْنُه، والفَحْوَى معنى ما يُعرف من مَذهب الكلام، وجمعه الأَفْحاء، وعرَفت ذلك في فَحْوى كَلامِه وفَحْوائِه: أَي مِعراضِه"[٣]

ويعلق ابن القيم على استنباط ابن عباس رضي الله عنه من آية الافتداء في الطلاق في سورة البقرة فيقول: "والمقصود: أن الواجب فيما علق عليه الشارع الأحكام من الألفاظ والمعاني ألا يتجاوز بألفاظها ومعانيها ولا يقصر بها، ويعطى اللفظ حقه والمعنى حقه، وقد مدح الله سبحانه أهل الاستنباط في كتابه، وأخبر أنهم أهل العلم، ومعلوم أن الاستنباط إنما هو استنباط المعاني والعلل ونسبة بعضها إلى بعض، فيعتبر ما يصح منها بصحة مثله ومشبهه ونظيره، ويلغى ما لا يصح، هذا الذي يعقله الناس من الاستنباط"[٤]، ويشير رحمه الله إلى مدح أهل الاستنباط استنادا لآية النساء المتقدمة.

---

[٢] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت ١٢٧٠هـ)، علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ، ج٣، ص٩١

[٣] لسان العرب، ج١٥، ص ١٤٩

[٤] إعلام الموقعين عن رب العالمين، أبو عبد الله محمد المعروف بابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٣هـ، ج٢، ٣٩٧

والرازي يفرع على هذه الآية جملة من المسائل، منها أن الاستنباط حجة[١]، ويستشكل صاحب المنار الاستدلال بهذه الآية على موضوع الاستنباط بالمعنى الاصطلاحي عند علماء الأصول والتفسير؛ فيقول ردا على الإمام الرازي: "زعم الرازي وغيره أن في هذه الآية دليلا على حجية القياس الأصولي، ... وإنما تعلق الأصوليون في هذا بكلمة (يستنبطونه) وهي من مصطلحاتهم الفنية، ولم تستعمل في القرآن بهذا المعنى، فقولهم مردود، أقول: وقد فرع الرازي على هذه المسألة أربعة فروع ... ، وأورد على ما قاله بعض الاعتراضات وأجاب عنها كعادته، ولما كانت المسألة التي أخذ منها هذه الفروع وبنى عليها هذه المجادلة خارجة عن معنى الآية، لا تدخل في معناها من باب الحقيقة ولا من باب المجاز ولا من باب الكناية، كان جميع ما أورده لغوا وعبثا، هذا شاهد من أفصح الشواهد على ما بيناه قبل من سبب غلط المفسرين، وبعدهم عن فهم الكثير من آيات الكتاب المبين، بتفسيره بالاصطلاحات المستحدثة، فأهل الأصول والفقه اصطلحوا على معنى خاص لكلمة الاستنباط، فلما ورد هذا اللفظ في هذه الآية؛ حمل الرازي على فطنته أن يخرج بها عن طريقها ويسير بها في طريق آخر ذي شعاب كثيرة يضل فيها السائر، حتى لا مطمع في رجوعه إلى الطريق السوي"[٢].

---

[١] مفاتيح الغيب، أبو عبد الله محمد بن عمر الملقب بفخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ، ج١٠، ص١٥٤.

[٢] تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد بن علي رضا (ت ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، ج٥، ص٢٤٤.

وما كان ينبغي له أن يهاجم من استدل بهذه الآية، وما كان له أن يهاجم الرازي ويصفه باللغو والعبث، لأننا لو اعتبرنا أن الآية ليست صريحة في موضوع الاستنباط كما هو عند الأصوليين فأقل ما يمكن فيها استنباط معنى الاستنباط.

لقد تفرَّع الكلام في موضوع الاستنباط، ولا شك أنه يستفاد من ذلك حكم عام وإن ورد في سبب خاص، لأن العبرة كما يقول العلماء بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وإذا كان كذلك فإن مما يدخل في عملية الاستنباط ما يتعلق بأحكام النوازل المتعددة التي تحل بالأمة في مختلف الأزمنة والأمكنة، وأحداث السيرة النبوية تمثل جزءاً مقدراً من آيات القرآن الكريم، وفيها شمول لجوانب الدين ابتداء من العقيدة مرورا بالعبادات والمعاملات والأخلاق ثم الدعوة، وفي كل مفردة مما ذكر نحتاج لتفريع مسائل وتقعيد قواعد وتثبيت أصول تُنزّل عليها النوازل، وتوجد فيها حلول المسائل، مما يعلي من مكانة الاستنباط التي لا يمكن أن تترك من غير ضوابط.

ثانياً: دعوة القرآن الصريحة للنظر في السيرة والتأسي برسول الله ﷺ

يقدم القرآن الكريم شخصية سيدنا رسول الله ﷺ قضيةً للتفكر والتأمل لكل الناس على اختلاف انتماءاتهم، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾سبأ:٤٦، هذا الخطاب موجه للمشركين الذين كفروا برسول الله ﷺ ليعملوا عقولهم وينظروا بتامل في حال رسول الله ﷺ، والقضية لكل الناس على مر الأيام، فرادى وجماعات، ليقلّبوا هذه الصفحات ويبحثوا بكل حرية، لكن بشرط الإنصاف ومعايير العقل السديد والنظر الثاقب، وستكون النتيجة تسليما وتصديقا وإعجابا، وكل مفردات اللغة الإيجابية يمكن أن توضع هنا

ولن تفي بالمطلوب، لقد هيأ الله تعالى نبيه ﷺ هذه التهيأة، ليكون ذلك منهجاً وهداية، ولذلك لا بد من المحافظة على هذه القيمة قيمة القدوة في حياته، وقيمة الثناء والتعظيم له ﷺ، ورحم الله ابن تيمية وهو يتفطن لهذه القضية ويقول: "فقيام المدحة والثناء عليه والتعظيم والتوقير له قيام الدين كله، وسقوط ذلك سقوط الدين كله"[٣]، فقد أعلن كل من عرف محمداً قبل البعثة أنه الصادق الأمين، وأصبحت هذه الخصال الحميدة والأخلاق الفاضلة عامل جذب وانجذاب نحوه، فأصبح الناس يحسون معه بالأمان والسلام، وتروي كتب السيرة كثيراً من المواقف التي تبين ذلك.

وفي جانب التأسي بسيرته ﷺ، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾، الأحزاب: ٢١، قال الألوسي: "والآيَةُ وإنْ سِيقَتْ لِلِاقْتِداءِ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ في أمْرِ الحَرْبِ مِنَ الثَّباتِ ونَحْوِهِ، فَهي عامَّةٌ في كُلِّ أفْعالِهِ ﷺ إذا لَمْ يُعْلَمْ أنَّها مِن خُصُوصِيّاتِهِ"[١]، ولعبد القادر الجزائري كلام جميل في هذه الآية حيث يقول: "أي بالنظر إلى معاملته ﷺ للخلق، من محبتهم وإرادة الخير لهم حتى قال له ربه: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾الشعراء:٣، والصبر عليهم ورؤية وجه الحق تعالى فيهم، ظلموه فعفا، وحرموه فأعطى، وجهلوا عليه فاحتمل، وقطعوه فوصل، وقال: اللهم

---

[٣] الصارم المسلول على شاتم الرسول، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، الحرس الوطني السعودي، السعودية، ص٢١١

[١] روح المعاني، الألوسي، ج١١، ص ١٦٥

اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، دفع السيئة بالحسنة وقابل كل مكروه بالأضداد المستحسنة، تخلقاً بالأخلاق الإلهية وتحققاً بالأسماء الرحمانية، فإنه لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، ويدخل تحت هذا الاسم من مكارم الأخلاق وحسن الشمائل وعلوم سياسة الدين والدنيا التي بها نظام العالم وعمارته وسعادة السعيد، ما لا تضبطه الأقلام وتكل دونه الاوهام"[٢]، وكل ما أشار إليه الشيخ الجزائري يمكن ان يدرس ضمن السيرة النبوية.

ثالثاً: التنبيه إلى أهمية السنن الإلهية:

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، آل عمران :١٣٧ ، قال المراغي : أي أن أمر البشر في اجتماعهم وما يعرض فيه من مصارعة الحق للباطل وما يلابس ذلك من الحرب والطعان والنزال والملك والسيادة يجري علي طرق قويمة وقواعد ثابتة اقتضتها الحكمة والمصلحة العامة[٣]، هذه القواعد الثابتة تمثل قوانين ربانية بثها الله في هذا الوجود، وأقام عليها نظام هذه الدنيا فربط الأسباب بالمسببات والمقدمات بالنتائج، وهذا باب من العلم دقيق ينبغي أن تتضافر جهود العلماء في بيانه؛ "إن إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سنناً يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علماً من العلوم المدونة، لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة علي أكمل وجه، فيجب علي الأمة في مجموعها أن

---

[٢] المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، عبد القادر الجزائري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م، ص٤٦

[٣] تفسير المراغي، الشيخ أحمد المراغي، مطبعة مصطفي الحلبي، الطبعة الأولي ١٩٤٦م، ج٤: ص ٧٦

يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون ... والعلم بسنن الله تعالي من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة."[٤]، وقد تضمنت أحداث السيرة النبوية كثيراً من السنن الإلهية في جهاده وسلمه في عدله وحلمه وسائر مناحي حياته وتصرفاته الشريفة صلوات الله وسلامه عليه ، "ويعتبر استنباط سنن الله من خلال جملة عهوده ووعوده سبحانه وتعالي ضمن الآيات القرآنية التي تناولت السيرة النبوية ضروريا وهاما ، إذ الأمة الإسلامية في حاجة ماسة إلى أن تعي دروسها وتستفيد منها في مسيرتها المستقبلية"[٥]

ولا يمكن الوصول إلى هذه القوانين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعسكرية وغيرها إلا بمنهجية علمية متزنة متجردة عن الهوى والغرض النفسي، بعيدة عن الفهم المنحرف إفراطاً أو تفريطاً، وهذا ما ينبغي أن يطلع به علم فقه السيرة النبوية.

رابعا: الدعوة إلى أخذ العبر من القصص القرآني والإفادة منها في الاستنباط من السيرة:

قال تعالي: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، يوسف:١١١ ، وقال تعالي: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾،

---

[٤] تفسير المنار، ج٤، ص١١٤

[٥] سنة الله في جهاد رسول الله، د. رشيد كهوس، دار الحكمة للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ٢٠١٢م: ص٧

هود:١٢٠، إن القصة القرآنية تختلف عن موضوعات السيرة في القرآن الكريم، فالسيرة شيء والقصة شيء آخر، لكن تظل الحكمة المشتركة فيهما أخذ العبرة، فالقصة القرآنية موضع عبرة ودرس، نتيجته تثبيت الفؤاد والسير في طريق الصالحين، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، هود: ١٢٠، والقصص القرآني سيرة قوم سابقين يرشدنا الكتاب الكريم لدراستها والإفادة منها، وقد اجتهد العلماء رحمهم الله في بيان وتحديد ضوابط التعامل مع القصص القرآني وكيفية إفادة الحكم منها، وهذا باب مهم من أبواب النظر في القرآن الكريم اجتهد العلماء في تقنينيه واعتباره، قال الشاطبي رحمه الله : "فكل حكاية وقعت في القرآن، فلا يخلو أن يقع قبلها أو بعدها وهو الأكثر رد لها أو لا ، فإن وقع فلا إشكال في بطلان ذلك المحكي وكذبه ، وإن لم يقع معها رد فذلك دليل صحة المحكي وصدقه"[١]، ومن صور الربط بين وقائع السيرة النبوية والقصة القرآنية ما ذكره ابن القيم في قصة سَعْيَة[٢] في مال حُيي بن أخطب، وقصة امرأة العزيز مع يوسف عيه

---

[١] الموافقات في أصول الشريعة، مرجع سابق، ج٣، ص٣٥٣.

[٢] والقصة كما أوردها ابن القيم رحمه الله، وتمامها: "وكذلك صالح أهل خيبر لما ظهر عليهم على أن يجليهم منها، ولهم ما حملت ركابهم، ول رسول الله –صلى الله عليه وسلم –الصفراء والبيضاء، والحلقة، وهي السلاح واشترط في عقد الصلح ألا يكتموا ولا يغيبوا شيئا، فإن فعلوا، فلا ذمة لهم، ولا عهد، فغيبوا مسكا فيه مال وحلي لحيي بن أخطب كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعم حيي بن أخطب، واسمه سعية: («ما فعل مسك حيي الذي جاء به من النضير؟ فقال: أذهبته النفقات والحروب، فقال: العهد قريب، والمال أكثر من ذلك») وقد كان =

السلام، يقول رحمه الله بعد أن استنبط جملة من الأحكام: "ومن هذا أيضاً ما حكاه الله سبحانه في قصة يوسف من استدلال الشاهد بقرينة قدِّ القميص من دُبُر علي صدقه وكذب المرأة، وأنه كان هارباً مولّياً؛ فأدركته المرأة من ورائه فجبذته فقدّت قميصه من دبر؛ فعلم بعلُها والحاضرون صدقَه وقبلوا هذا الحكم، وجعلوا الذنب ذنبها، وأمروها بالتوبة، وحكاه الله سبحانه وتعالى حكاية مقر له غير منكر، والتأسي بذلك وأمثاله في إقرار الله له وعدم إنكاره لا في مجرد حكايته، فإنه إذا أخبر به مقراً عليه ومثنياً علي فاعله ومادحاً له دلّ علي رضاه به، وأنه موافق لحكمه ومرضاته، فليُتدبر هذا الموضع

=

حيي قتل مع بني قريظة لما دخل معهم، فدفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه إلى الزبير ليستقره، فمسه بعذاب، فقال: قد رأيت حييا يطوف في خربة هاهنا، فذهبوا فطافوا، فوجدوا المسك في الخربة، فقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ابني أبي الحقيق، وأحدهما زوج صفية بنت حيي بن أخطب، وسبى نساءهم وذراريهم، وقسم أموالهم بالنكث الذي نكثوا، وأراد أن يجليهم من خيبر، فقالوا: دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها، فنحن أعلم بها منكم، ولم يكن ل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولا لأصحابه غلمان يكفونهم مؤنتها، فدفعها إليهم على أن ل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الشطر من كل شيء يخرج منها من ثمر أو زرع، ولهم الشطر، وعلى أن يقرهم فيها ما شاء، ولم يعمهم بالقتل كما عم قريظة لاشتراك أولئك في نقض العهد، وأما هؤلاء فالذين علموا بالمسك وغيبوه وشرطوا له إن ظهر، فلا ذمة لهم ولا عهد، فإنه قتلهم بشرطهم على أنفسهم، ولم يتعد ذلك إلى سائر أهل خيبر، فإنه معلوم قطعا أن جميعهم لم يعلموا بمسك حيي، وأنه مدفون في خربة، فهذا نظير الذمي والمعاهد إذا نقض العهد، ولم يمالئه عليه غيره، فإن حكم النقض مختص به، ثم في دفعه إليهم الأرض على النصف دليل

فإنه نافع جداً"[٣]، ويلاحظ تركيز الإمام ابن القيم علي ضوابط مهمة في قضية إفادة الحكم من القصة القرآنية ، وقد أرود هذا الكلام تعقيبا علي استنباط جملة من الأحكام من السيرة النبوية.

فهذه بعض الإشارات القرآنية لأهمية الاستنباط، والسيرة النبوية محل صالح للاستنباط، وأحسب أن هذه الإشارات جاءت لدعوة المجتهدين للسير في نفس الطريق، مهتدين بهداية القرآن متمسكين بمبادئه العامة ومقاصده الكلية، ليكون ذلك شاهداً على صلاحية هذا الدين لكل زمان ومكان، ولكل عصر ومصر، وكما نبهنا سابقاً؛ فإن الاستنباط من السيرة النبوية مجال واسع تتشعب فيه كلمة الدارسين، وتتفاوت فيه اتجاهات المجتهدين، ولذلك لا بد له من ضوابط، وهذه محاولة لذكر بعضها.

المبحث الثالث: ضوابط الاستنباط من السيرة النبوية:

تتعدد وسائل المعرفة في المنهج الإسلامي، فأساسها الوحي الإلهي، وفي مقدمة ذلك القرآن الكريم فالسنة الصحيحة، ولكن الوحي يحتاج للفهم الصحيح والتنزيل المناسب علي أرض الواقع، وهذه عملية لا يستطيع أن يقوم بها كل إنسان، إنها عملية عقلية علمية دقيقة يقوم بها المجتهدون ويتفاوتون فيها، ويظهر فيها ضرورة مراعاة عامل الزمان والمكان وظروف الواقع، فنحن حيال هذا الأمر أمام خطين، خط يمثل الثابت المطلق الذي لا يتغير ويظل حاكماً ومهيمناً وموجهاً، وهو نفسه قد تختلف فيه التأويلات، وخط متغير نسبي يحكمه المطلق، وهذا تمثله الخبرة التاريخية والتجربة المستمرة، ويعد فقه السيرة النبوية واحداً من العلوم التي تقوم بصورة أساسية

---

[٣] زاد المعاد في هدي خير العباد، ط ٢٧، ١٩٩٤م، ج٣، ص١٣٦.

علي عملية الاستنباط والتحليل والتنزيل علي الواقع، إنه علم يبحث في دلالة وقائع السيرة علي الأحكام بمختلف فروعها، ووقائع السيرة النبوية تمثل ترجمة عملية للإسلام، فهي جزء من تفسير الكتاب الكريم، وهي جزء من سنة النبي ﷺ، فأول خطوة توصل إلي نتائج صحيحة واستنباطات سليمة هي البحث والتدقيق في صحة المرويات في هذا الجانب، وتليها خطوات أخري.

أولاً: التحري عن صحة الخبر وثبوته:

تعددت مصادر السيرة النبوية تعدداً واضحا، وكما ذكرنا سابقا يأتي كتاب الله تعالي في مقدمة مصادر ها، ثم تأتي كتب السنة حسب ترتيب العلماء لصحتها وموثوقيتها، ثم كتب المغازي والسير وكتب الدلائل وكتب التاريخ، فكل ما ورد في القرآن الكريم والسنة الصحيحة قطعي الثبوت، وما ورد في غيرهما يحتاج إلى بحث وتدقيق في ثبوته، وفي هذه الحالة لابد من التحري والتثبت في معرفة صحة الخبر خصوصا إذا تعلق بالعقيدة والأحكام، "وعلي الباحث المؤلف الحديث أن ينظر في أسانيدهم ويمحصها؛ فيحتج بالصحيح منها ويستأنس بالضعيف فيما لا يتعلق بالعقيدة والأحكام"[١].

إن قضية دراسة مصادر السيرة النبوية من القضايا المهمة والأساسية في هذا العلم؛ ولذلك وجدت حظها من اهتمام العلماء ونبهوا عليها قديما وحديثا، "وهنا تظهر أهمية توجيه البحث العلمي المتخصص

---

[١] السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د. مهدي رزق الله أحمد، مطبعة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط١، ١٩٩٢م، ص٤٦

إلى الاشتغال بموضوع مصادر السيرة النبوية، وأنواعها مع ضبط مراتبها من جهة القبول والرد، وذلك لن يتأتى إلا من خلال استقراء منهج نَقَلة آثار السيرة من المحدثين والمؤرخين وتحديد ضوابطهم في تخريج الروايات، ثم الاستفادة من تلك الضوابط في الدراسة العلمية للسيرة التي تعتمد الصحيح والحسن من الأخبار"[٢]

ومعلوم أن منهج العلماء في كتابة السيرة وتدوينها وتوثيقها يختلف عن منهجهم في كتابة السنة، فقد شددوا كثيرا في الأمور التي تتعلق بالأحكام الشرعية، وهذا ناتج من حرصهم الزائد على أن تؤخذ الأحكام وما يتعلق بالحلال والحرام مما صحّ من الآثار، وقد أشرنا سابقاً إلى كلام الحافظ العراقي في ألفيته حيث أشار إلى أن السير تجمع ما قد صحّ وما قد أنكرا، وورد عن الإمام أحمد بن حنبل ما يفيد هذا، قال ابن معين: "سمعت عباسا يقول سمعت أحمد بن حنبل يقول وهو على باب أبى النضر وسأله رجل فقال: يا أبا عبد الله ما تقول في محمد بن إسحاق وموسى بن عبيدة الربذي؟ فقال: أما موسى بن عبيدة فكان رجلا صالحا حدث بأحاديث مناكير، وأما محمد بن إسحاق فيكتب عنه هذه الأحاديث يعنى المغازي

[٢] مصادر السيرة النبوية بين المحدثين والمؤرخين، د. عبد الرازق هرماس، جائزة نايف بن عبد العزيز آل سعود، السعودية، ط١، ٢٠٠٧، ص٤

ونحوها فإذا جاء الحلال والحرام أردنا قوما هكذا، قال أحمد بن حنبل بيده وضم يديه وأقام أصابعه الإبهامين"[١].

وذكر الخطيب البغدادي في باب التشدد في أحاديث الأحكام والتجوز في فضائل الأعمال قال: "قد ورد عن غير واحد من السلف أنه لا يجوز حمل الأحاديث المتعلقة بالتحليل والتحريم إلا عمن كان بريئا من التهمة، بعيدا من الظنة، وأما أحاديث الترغيب والمواعظ ونحو ذلك؛ فإنه يجوز كتبها عن سائر المشايخ"[٢]

ولا بد من التنبيه هنا على أننا نذكر هذا الضابط –التحري من صحة الخبر وثبوته–إذا أقدمنا على الاستنباط منه، لكن فيما سوى ذلك فإن كلمة العلماء واضحة في جواز رواية الأخبار إذا لمم تتعلق بالاستنباط، وإذا تعارض شيء مما جاء في السيرة مع ما جاء في القرآن الكريم او مع ما جاء في الحديث الصحيح فيقدم الأقوى، ولندلل على ذلك نذكر شيئاً مما ذكره القاضي عياض في قصة الغرانيق، وهي من الحكايات المشهورة في كتب التفسير والحديث ولا شك أنها تعد من أحداث السيرة المهمة، فبعد أن أوردها القاضي رد عليها بمنهج قوي أوضح فيه السبيل الأسلم في حال تعارض الروايات، وكان من آخر ما قال في ذلك: "ووجه رابع ذكره الرواة

---

[١] التاريخ عن أبي زكريا يحيى بن معين –رواية الدوري عنه، أبو زكريا يحيى بن معين، تحقيق: الدكتور أحمد محمد نور سيف، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ط١، ١٩٧٩م، ج٣، ص٢٤٧

[٢] الكفاية في علم الرواية، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ)، جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط١، ١٣٥٧هـ، ص١٣٣

لهذه القضية أن فيها نزلت: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾، الإسراء: ٧٣-٧٤، وهاتان الآيتان تردان الخبر الذي رووه؛ لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفتري وأنه لولا أن ثبته لكاد يركن إليهم، فمضمون هذا ومفهومه أن الله تعالى عصمه من أن يفترى، وثبته حتى لم يركن إليهم قليلا فكيف كثيرا؟ وهم يرون في أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم وأنه قال ﷺ: افتريت على الله وقلت ما لم يقل، وهذا ضد مفهوم الآية، وهي تضعف الحديث لو صح فكيف ولا صحة له؟"[٣]

[٣] الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ج٢، ص١٢٨

ثانياً: مراعاة المقاصد العامة للتشريع:

المقاصد في اللغة: قال ابن فارس: (قصد) القاف والصاد والدال أصول ثلاثة، يدل أحدها على إتيان شيء وأمه، والآخر على اكتناز في الشيء، فالأصل: قصدته قصدا ومقصدا، ومن الباب: أقصده السهم، إذا أصابه فقتل مكانه، وكأنه قيل ذلك لأنه لم يحد عنه، قال الأعشى:

فأقصدها سهمي وقد كان قبلها *** لأمثالها من نسوة الحي قانصا[٤]

وقال ابن منظور: القصد: استقامة الطريق، قصد يقصد قصدا، فهو قاصد ... وطريق قاصد: سهل مستقيم، وسفر قاصد: سهل قريب ... والقصد: العدل[٥]، ومن معانيه التوجه نحو الشيء قال الزبيدي: القصد: الاعتماد والأم، تقول: قصده وقصد له، وقصد إليه، بمعنى، يقصده بالكسر، وكذا يقصد له ويقصد إليه[٦].

المقاصد في الاصطلاح:

وجدت المقاصد اهتماما كبيرا عند العلماء قديما وحديثا لأهميتها ودوران التشريع عليها، والمقاصد في الاصطلاح هي: "المعاني والحكم

---

[٤] معجم مقاييس اللغة، ج ٥، ص ٩٥.

[٥] لسان العرب، ج٣، ص ٣٥٣

[٦] تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد مرتضى الحسيني الزَّبيدي، تحقيق: مجموعة من العلماء، وزارة الإرشاد والأنباء، والمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠٠١م، ج٩، ص٣٦.

الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها"[١]، وعرفها علال الفاسي بقوله: "الغاية منها والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها"[٢]، وعرفها غيره بأنها: "المعاني والحكم ونحوها التي راعاها الشارع في التشريع عموما وخصوصا من أجل تحقيق مصالح العباد"[٣]

لقد جاءت الشريعة رحمة للناس لتحقيق مصالحهم وضبطها، وتيسير أمورهم، واستطاع العلماء الأوائل رحمهم الله من استقراء أدلة التشريع؛ ليحرروا موضوع المقاصد ويضبطوها حتى لا ينفلت الكلام فيها من غير ضبط وتقنين، يقول الشاطبي رحمه الله: "لما انبنت الشريعة على قصد المحافظة على المراتب الثلاث من الضروريات والحاجيات والتحسينات، وكانت هذه الوجوه مبثوثة في أبواب الشريعة وأدلتها، غير مختصة بمحل دون محل، ولا بباب دون باب، ولا بقاعدة دون قاعدة؛ كان النظر الشرعي فيها أيضا عاما لا يختص بجزئية دون أخرى؛ لأنها كليات تقضي على كل جزئي تحتها، وسواء علينا أكان جزئيا إضافيا أم حقيقيا؛ إذ ليس فوق هذه الكليات كلي تنتهي إليه، بل هي أصول الشريعة وقد تمت؛ فلا يصح أن يفقد بعضها حتى يفتقر إلى إثباتها بقياس أو غيره؛ فهي

---

[١] مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ)، محمد الحبيب ابن الخوجة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ٢٠٠٤م، ج٣، ص ١٦٥

[٢] مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، علال الفاسي، دار الغرب الإسلامي، ط٥، ١٩٩٣م، ص٧.

[٣] مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة التشريعية، د. محمد سعد اليوبي، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٩٩٨م، ص٣٧.

الكافية في مصالح الخلق عموما وخصوصا"[٤]، وعلى هذا "فالمقاصد الشرعية لا تقتصر على الفقه والتشريع فقط وإن كان ذلك هو الأهم، لكن لا بد من شمولية العقل المقاصدي ليتناول جميع حقول المعرفة والفكر والسلوك"[٥]

والحاجة إلى المقاصد في فهم النصوص ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها، خاصة إذا أشكل فهم النص وكان الوصول إلى استنباط الحكم منه متوقف عليها، وإذا كان قد تقرر أن المقاصد تقوم على المصالح التي راعاها الشارع؛ فلا بد من الإشارة إلى أن "اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة، فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها وإلا اجتهد برأيه لمعرفة الأشباه والنظائر، وقلّ أن تعوز النصوص من يكون خبيرا بها وبدلالتها على الأحكام"[٦]

ومن أمثلة إعمال المقاصد في فهم السنة ما ورد عن علي رضي الله عنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية واستعمل عليهم رجلا من الأنصار، وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا فأغضبوه في شيء، فقال: اجمعوا لي حطبا، فجمعوا، ثم قال: أوقدوا نارا، فأوقدوا، ثم قال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لي وتطيعوا؟ قالوا: بلى! قال: فادخلوها!

---

[٤] الموافقات، ج٣، ص١٧١

[٥] أهمية المقاصد في الشريعة الإسلامية وأثرها في فهم النص واستنباط الأحكام، د. سميح عبد الوهاب الجندي، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م، ص١٨

[٦] مجموع الفتاوى، شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم رحمه الله، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، السعودية، ٢٠٠٤ م، ج٢٨، ص١٢٩

قال: فنظر بعضهم إلى بعض فقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النار! فكانوا كذلك، وسكن غضبه، وطفئت النار، فلما رجعوا إلى رسول الله ﷺ ذكروا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف"[٧].

ويعلق أبو العباس القرطبي على هذا التصرف الوارد في الحديث بقوله: "وقوله لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة ظاهر في أنه تحرم الطاعة في المعصية المأمور بها، وأن المطيع فيها يستحق العقاب، وقوله للآخرين قولا حسنا يدل على مدح المصيب في المجتهدات، كما أن القول الأول يدل على ذم المقصر المخطئ وتعصيته، مع أنه ما كان تقدم لهم في مثل تلك النازلة نص، لكنهم قصروا حيث لم ينظروا في قواعد الشريعة الكلية ومقاصدها المعلومة الجلية"[١].

ويشير ابن تيمية رحمه الله إلى دور المقاصد في فهم قضايا عديدة من السيرة النبوية، ففي قضية هجر العصاة المجاهرين التي توفرت عليها أدلة متضافرة، يقرر أن هذا لا بد فيه من النظر إلى المقاصد، ويقول في ذلك: "وهذا الهجر يختلف باختلاف الهاجرين في قوتهم وضعفهم وقلتهم

---

[٧] صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت٢٦١ هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٩٥م، ج ٣، ص ٤٦٩، حديث رقم: ١٨٤٠

[١] المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (ت ٦٥٦ هـ)، تحقيق: محيي الدين ديب ميستو -أحمد محمد السيد -يوسف علي بديوي -محمود إبراهيم بزال، دار ابن كثير، دمشق -بيروت)، دار الكلم الطيب، دمشق – بيروت، ط ١، ١٩٩٦م، ج ٤، ص ٤٠

وكثرتهم فإن المقصود به زجر المهجور وتأديبه ورجوع العامة عن مثل حاله؛ فإن كانت المصلحة في ذلك راجحة بحيث يفضي هجره إلى ضعف الشر وخفيته كان مشروعا، وإن كان لا المهجور ولا غيره يرتدع بذلك بل يزيد الشر والهاجر ضعيف بحيث يكون مفسدة ذلك راجحة على مصلحته لم يشرع الهجر؛ بل يكون التأليف لبعض الناس أنفع من الهجر، والهجر لبعض الناس أنفع من التأليف؛ ولهذا كان النبي ﷺ يتألف قوما ويهجر آخرين"[٢]، وقال ابن حجر في الفطر في السفر: "وقال ابن دقيق العيد: أخذ من هذه القصة أن كراهة الصوم في السفر مختصة بمن هو في مثل هذه الحالة ممن يجهده الصوم ويشق عليه أو يؤدي به إلى ترك ما هو أولى من الصوم من وجوه القرب، فينزل قوله: ليس من البر الصوم في السفر على مثل هذه الحالة، قال: والمانعون في السفر يقولون: إن اللفظ عام، والعبرة بعمومه لا بخصوص السبب، قال: وينبغي أن يتنبه للفرق بين دلالة السبب والسياق والقرائن على تخصيص العام وعلى مراد المتكلم، وبين مجرد ورود العام على سبب، فإن بين العامين فرقا واضحا، ومن أجراهما مجرى واحدا لم يصب، فإن مجرد ورود العام على سبب لا يقتضي التخصيص به كنزول آية السرقة في قصة سرقة رداء صفوان، وأما السياق والقرائن الدالة على مراد المتكلم فهي المرشدة لبيان المجملات وتعيين المحتملات كما في حديث الباب"[٣]

---

[٢] مجموع فتاوى ابن تيمية، ج ٢٨، ص ٢٠٦

[٣] فتح الباري بشرح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، المكتبة السلفية، مصر، ط١، ١٣٩٠هـ

ومن خلال ما سبق فإن عملية الاستنباط من السيرة النبوية باعتبار المقاصد عملية دقيقة، يحسن أن يقوم بها من اتصف بأوصاف خاصة من التأهل العلمي والأخلاقي، قال الشاطبي: "إنما تحصل درجة الاجتهاد لمن اتصف بوصفين: أحدهما: فهم مقاصد الشريعة على كمالها، والثاني: التمكن من الاستنباط بناء على فهمه فيها، أما الأول؛ فقد مر في كتاب المقاصد أن الشريعة مبنية على اعتبار المصالح، وأن المصالح إنما اعتبرت من حيث وضعها الشارع كذلك، لا من حيث إدراك المكلف؛ إذ المصالح تختلف عند ذلك بالنسب والإضافات، واستقر بالاستقراء التام أن المصالح على ثلاث مراتب، فإذا بلغ الإنسان مبلغا، فهم عن الشارع فيه قصده في كل مسألة من مسائل الشريعة، وفي كل باب من أبوابها؛ فقد حصل له وصف هو السبب في تنزله منزلة الخليفة للنبي ﷺ في التعليم والفتيا والحكم بما أراه الله"[٣]، والسيرة النبوية معين ثر ومجال واسع للتأمل والنظر في تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم، والبحث عن المقاصد فيها لتضاف إلى استقراء العلماء وجهودهم المباركة في درس المقاصد، قال أبو حيان التوحيدي وهو يتحدث عن شيخه أبي حامد العامري: "كان أبو حامد كثير العلم غزير الحفظ قيِّماً بالسير وكان يزعم أن السّير بحر الفتيا وخزانة القضاء وعلي قدر اطلاع الفقيه عليها يكون استنباطه"[٤]، ونفهم من ذلك أن ملكة الاستنباط لا تكتمل ويشتد عودها ويستقيم أمرها إلا بعد التبحر في

---

[٣] الموافقات، ج٥، ص٤١-٤٢

[٤] طبقات الشافعية، عبد الوهاب السبكي، دار إحياء الكنب العربية، ج٣، ص١٣

عالم السيرة النبوية، كيف لا والسيرة هي الترجمة العملية للإسلام وقد ورد منها جزء كبير في القرآن الكريم وفي صحيح السنة.

ثالثاً: معرفة مراتب فعل النبي صلي الله عليه وسلم:

يُعرِّف العلماء السنة بعدة تعاريف حسب المنطلق العلمي الذي ينطلقون منه، فالأصوليون يعرفونها بأنها: ما صدر عن النبي صلي الله عليه وسلم غير القرآن من الأقوال والأفعال، والمحدِّثون يعرفونها بأنها: ما أضيف إلى النبي صلي الله عليه وسلم من قول أو فعل أو صفة خَلْقية أو خُلُقية وما يتصل بالرسالة من أحواله الشريفة قبل البعثة ونحو ذلك[١]، وقد اتجهت جهود العلماء رحمهم الله بكثافة نحو السنة القولية، فبينوا دلالتها علي الأحكام بتفصيل شديد، حيث درسوا الأمر والنهي والعام والخاص، ودلالة السياق وسبب الورود إلي بقية المباحث المعروفة، وبقيت مسألة دلالة الأفعال علي الأحكام في حاجة إلى مزيد دراسة وبيان، فالأفعال تمثل قدرا كبيرا من السنة النبوية، وسيرة النبي ﷺ في كثير من تفاصيلها ومفرداتها ما هي إلا فعل له ﷺ، فالقضية المهمة والسؤال الملح هو الذي طرحه الإمام الشاطبي حين قال: "لو تُركنا والفعل الذي فعله ﷺ مثلاً ، لم يحصل لنا منه غير العلم بأنه فعله في هذا الوقت المعين وعلي هذه الحالة المعينة، فيبقى علينا: هل ينسحب طلب هذا الفعل منه في كل حالة أو في هذه الحالة؟ أو يختص بهذا الزمان أو هو عام في جميع الأزمنة؟ أو يختص به وحده أو يكون حكم أمته حكمه؟ ثم بعد النظر في هذا يتصدى

---

[١] أفعال الرسول ودلالتها على الأحكام الشرعية، د. محمد الأشقر، مؤسسة الرسالة، ط ٥، ١٩٩٦م، ج١، ص١٨

نظر آخر في حكم هذا الفعل الذي فعله: من أي نوع هو من الأحكام الشرعية"[٢]

ويعيد الإمام القرافي هذا التساؤل بتفصيل أكثر، فيقول: "ما الفرق بين تصرف رسول الله ﷺ بالفتيا والتبليغ، وبين تصرفه بالقضاء، وبين تصرفه بالإمامة؟ وهل آثار هذه التصرفات مختلفة في الشريعة والأحكام أو الجميع سواء في ذلك؟ وهل بين الرسالة وهذه الأمور الثلاثة فرق أو الرسالة عين الفتيا؟ وإذا قلتم: إنها عين الفتيا أو غيرها، فهل النبوة كذلك أو بينها وبين الرسالة فرق في ذلك؟ فهذه مقامات جليلة، وحقائق عظيمة شريفة، يتعين بيانها وكشفها والعناية بها، فإن العلم يشرف بشرف المعلوم"[٣]، ويجيب رحمه الله بإجابة موسعة مستوفية للغرض ويقول: "جوابه أن تصرف رسول الله بالفتيا هو إخباره عن الله تعالى بما يجده في الأدلة من حكم الله تبارك تعالى، كما قلناه في غيره ﷺ من المفتين، وتصرفه ﷺ بالتبليغ هو مقتضى الرسالة، والرسالة هي أمر الله تعالى له بذلك التبليغ؛ فهو ﷺ ينقل عن الحق للخلق في مقام الرسالة ما وصل إليه عن الله تعالى؛ فهو في هذا المقام مبلغ وناقل عن الله تعالى، وورث عنه ﷺ هذا المقام المحدثون رواة الأحاديث النبوية وحملة الكتاب العزيز لتعليمه، وكما ظهر الفرق لنا بين المفتي والراوي؛ فكذلك يكون الفرق بين تبليغه ﷺ عن ربه وبين فتياه في

---

[٢] الموافقات، ج٤، ص٨٢

[٣] الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس القرافي (ت ٦٨٤)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط ٢، ١٩٩٥م، ص٩٩

الدين، والفرق هو الفرق بعينه، فلا يلزم من الفتيا الرواية ولا من الرواية الفتيا من حيث هما رواية وفتيا، وأما تصرفه ﷺ بالحكم فهو مغاير للرسالة والفتيا؛ لأن الفتيا والرسالة تبليغ محض واتباع صرف، والحكم إنشاء وإلزام من قبله ﷺ بحسب ما يسنح من الأسباب والحجاج"[٤]

ويسترسل القرافي في الكلام في هذه الفروق بتوسع بديع وفوائد جليلة جميلة إلى أن يقول: "وأما تصرفه ﷺ بالإمامة فهو وصف زائد على النبوة والرسالة والفتيا والقضاء، لأن الإمام هو الذي فوضت إليه السياسة العامة في الخلائق وضبط معاقد المصالح ودرء المفاسد، وقمع الجناة وقتل الطغاة وتوطين العباد في البلاد، إلى غير ذلك مما هو من هذا الجنس"[١]

والاستنباط من السيرة بابه واسع ومجاله مفتوح على كثير من نواحي الحياة، ولا بد لمن أراد أن يستنبط حكما يتعلق بالقتال أو بالسياسة أو بالحياة الاجتماعية أو الاقتصادية أو غيرها أن يكون على دراية كبيرة بفعل النبي ﷺ ومراتبه وحكمه.

رابعاً: حضور قدر ومكانة صاحب السيرة ﷺ في عملية الاستنباط:

إن قضية تفخيم قدر رسول الله ﷺ من القضايا الإيمانية التي لا يكتمل إيمان المؤمن إلا بها، ولقد عاش الصحابة الكرام رضوان الله عليهم هذا الحب والتفخيم مع تنزل آيات القرآن الكريم لحظة بلحظة، وإذا كان رب العزة جل جلاله الغني عن خلقه ينزل على رسوله ما يفيد هذه الحقيقة، فإن

---

[٤] المرجع السابق، ص ٩٩ وما بعدها

[١] الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، ص ١٠٥

المؤمنين معنيين بهذا العمل الذي يوصلهم إلى المحبة والاتباع، كما يسهم في استنباط الأحكام بطريقة سليمة موافقة لتوجهات القرآن الكريم.

قال القاضي عياض: "اعلم أن في كتاب الله العزيز آيات كثيرة مفصحة بجميل ذكر المصطفي ﷺ وعدِّ محاسنه وتعظيم أمره، وتنويه قدره"[٢]، ومن يتدبر القرآن الكريم سيطلع على نظم بديع ومحاسن جمة تضمنتها آيات القرآن الكريم بمختلف الأساليب البلاغية، بيانا لقدر الرسول ﷺ، وخطاب الله للنبي ﷺ في القرآن خطاب متعدد الدلالات فتارة يقوم الدليل على أنه خاص به، وتارة يقوم الدليل على أنه خطاب عام، وتارة لا يظهر الدليل على أحدهما؛ وبعض الآيات التي فيها ذكر لرسول الله ﷺ قد يبدو في ظاهرها عتاب أو نسبة الذنب له ﷺ، وهذه تحتاج لفهم يرجع إلى هذا الضابط الذي نحن بصدده، ولنأخذ مثالاً على ذلك ورد ضمن أحداث السيرة، فضمن أحداث غزوة بدر ورد أن المسلمين قتلوا سبعين من المشركين وأسروا سبعين، "فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر ما ترون في هؤلاء الأسارى؟، فقال أبو بكر: يا نبي الله هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية؛ فتكون لنا قوة على الكفار؛ فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ ما ترى يا ابن الخطاب؟، قلت: لا والله ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم؛ فتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان – نسيبا لعمر – فأضرب عنقه، فإنّ هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر

---

[٢] الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ج١، ص١٤.

قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله! أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ أبكي للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة، شجرة قريبة من نبي الله ﷺ، وأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾، الأنفال: إلى قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾، الانفال: ٦٩[٣]

فظاهر الآيات ربما يفهم منه العتاب الشديد لرسول الله ﷺ، وقد يترتب على هذا استنباط خاطئ يتعلق بعصمته ومقامه الشريف ﷺ، ولذلك وجب هنا النظر في فحوى الخطاب القرآني لرسول الله ﷺ، لقد تنبه كثير من المفسرين رحمهم الله لهذا الأمر، قال ابن عطية: "هذه الآية تتضمن عندي معاتبة من الله عز وجل لأصحاب نبيه ﷺ، والمعنى: ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذي أوجب أن يكون للنبي أسرى قبل الإثخان، والإخبار هو لهم، ولذلك استمر الخطاب بـ (تريدون)، والنبي ﷺ لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب ولا أراد قط عرض الدنيا، وإنما فعله جمهور مباشري الحرب"[١]، وقال أبو حيان: "وهو هنا على حذف مضاف، أي: ما كان لأصحاب نبي، أو لأتباع نبي، فحذف اختصارا، ولذلك جاء الجمع في

---

[٣] صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ج ٣، ص٣٨٣

[١] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ، ج٢، ص٥٥١.

قوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾، ولم يجئ التركيب تريد أو يريد عرض الدنيا؛ لأنه لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب، ولا أراد عرض الدنيا قط، وإنما فعله جمهور مباشري الحرب، وقد طول المفسرون في قصة هؤلاء الأسارى، وذلك مذكور في السير، وحذفناه نحن؛ لأن في بعضه ما لا يناسب ذكره بالنسبة إلى مناصب الرسل"[٢].

وهذا الذي أشار إليه أبو حيان رحمه الله –مناصب الرسل–هو لب ما نتحدث عنه في هذه الفقرة، وهو ما قال جمع من المفسرين.

وفي موقف آخر من مواقف السيرة النبوية في غزوة تبوك يقول تعالي: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾، التوبة٤٣، وحاصل القصة أن فريقاً من المنافقين استأذن النبي ﷺ في التخلف عن الغزوة، منهم عبد الله بن سلول، والجد بن قيس، ورفاعة بن التابوت، وكانوا تسعة وثلاثين، واعتذروا بأعذار كاذبة، وأذن النبي ﷺ لمن استأذنه حملاً للناس علي الصدق إذ كان ظاهر حالهم الإيمان، وعلماً بأن المعتذرين إذا ألجئوا إلي الخروج لا يغنون شيئا كما قال تعالي: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، التوبة٤٧، فعاتب الله نبيه ﷺ في أن

---

[٢] البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ، ج٩، ص١٤٦

أذن لهم؛ لأنه لو لم يأذن لهم لقعدوا، فيكون ذلك دليلاً للنبي ﷺ علي نفاقهم وكذبهم في دعوي الإيمان[٣]

لقد تناول بعض المفسرين والعلماء رحمهم الله هذه الآية واقفين عند هذا المعني، منبهين لأهميته، قال القاضي عياض: "يجب علي المسلم المجاهد نفسه، الرائض بزمام الشريعة خلقه أن يتأدب بآداب القرآن في قوله وفعله ومعاملته ومحاوراته، فهو عنصر المعارف الحقيقية وروضة الآداب الدينية والدنيوية، وليتأمل هذه الملاطفة العجيبة في السؤال من رب الأرباب المنعم علي الكل المستغني عن الجميع، ويستسير ما فيها من الفوائد، وكيف ابتدأ بالإكرام قبل العتب، وآنس بالعفو قبل ذكر الذنب إن كان ثم ذنب[٤]، فهذا منحي إيماني مهم ينبغي أن يتم التركيز عليه في دراسة السيرة النبوية وفقهها، لأن بعض الواقفين مع ظاهر النصوص يتجرأون أحياناً علي جناب المصطفي ﷺ ويتكلمون عنه كما لو كان عبقرياً أو قائداً ملهماً، غاضين الطرف عن نبوته ورسالته والوحي الذي أيده الله به إعجازاً وهداية وبلسماً وشفاءاً، يقول الشيخ عبد الحليم محمود: "إنه ليس بنادر في العصر الحاضر أن يجرؤ بعض الناس فيتحدث عن الرسول ﷺ وعن خطئه –معاذ الله– ، في الرأي ، وعن إصابته فيه، ويسير هذا البعض في حديثه أو كتابته مستنتجاً ومستنبطاً وحاكماً، وينسي في كل ذلك: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ النجم:٣، وينسى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾، الكهف:

---

[٣] تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج: ص٢١٠، وانظر السيرة النبوية لابن اسحق: ج٢: ص٦٢

[٤] الشفا، القاضي عياض، ج١، ص٢٩

١١٠، وينسي (لست كهيئتكم[٥])، وينسي: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾، النور:٦٣[٦]، إن التعاطي مع السيرة النبوية وفقهها ينبغي أن يكون تعاطياً تظلله العوامل الوجدانية القائمة على هدايات القرآن الكريم في بيان قدر سيدنا رسول الله ﷺ.

---

[٥] الحديث بتمامه: "نَهَى رَسولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الوِصَالِ رَحْمَةً لهمْ، فَقالوا: إنَّكَ تُوَاصِلُ، قالَ: إنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إنِّي يُطْعِمُنِي رَبِّي ويَسْقِينِ، انظر صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دار اليمامة، دمشق، ط٥، ١٩٩٣م، ج٢، ص٥٧٨، كتاب الصوم، باب: بركة السحور من غير إيجاب، حديث رقم: ١٨٢٢

[٦] دلائل النبوة، د.عبد الحليم محمود، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ،١٩٩١م، ص١٩

خامساً: التجرد عن سلطان الهوى وشهوة الإرادة:

هذا الضابط ذكره الدكتور البوطي في تعريفه لفقه السيرة حيث قال:"إنه عمل علمي متميز ومستقل بذاته، ينهض بدوره علي منهج وقواعد أخري من شأنها أن تضبط عملية استنباط النتائج والمبادئ من تلك الأحداث، ضمن قالب علمي يقصيها عن سلطان الوهم وشهوة الإرادة النفسية"[١]، وهذا القيد يعتبر من القيود المهمة في عملية الاستنباط، لأن الهوى خطر على تفكير الإنسان، وقد حذرت منه آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي الكريم ﷺ، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾، الفرقان: ٤٣، قال القرطبي: "أي أطاع هواه، وعن الحسن لا يهوى شيئا إلا اتبعه"[٢]، وقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، الأعراف: ١٧٥– ١٧٦، وهذه الآية صريحة في بيان اتباع الهوى وأثره على ضياع بركة هداية الآيات القرآنية، ويؤيد معنى الآية في بيان خطورة الهوى ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم، من حديث حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ ما أتخوَّفُ عليكم رجُلٌ قرَأَ القُرآنَ، حتَّى إذا رُئِيَتْ بهجتُه عليه وكان رِدْئًا للإسلامِ، غيَّره إلى ما

---

[١] فقه السيرة، البوطي، ص٢١

[٢] الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، أحمد البردوني وإبراهيم أطفي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م، ج١٣، ص٣٦.

شاء اللهُ، فانسلَخ منه ونبَذه وراءَ ظَهرِه وسعى على جارِه بالسَّيفِ ورماه بالشِّركِ، قال: قُلْتُ: يا نبيَّ اللهِ أيُّهما أَوْلى بالشِّركِ المَرْميُّ أم الرَّامي؟ قال: بلِ الرَّامي"[٣].

وهذه مسألة قديمة متجددة، ذلك أن بعضا ممن تصدر لمثل هذا العمل يدخل إليه وهو يحمل أفكاراً مسبقة في موضوع معين فيحمل عليها الحقائق حملاً دون مراعاة للضوابط التي ذكرناها آنفاً، إن سلطان الهوى أخطر من الجهل بحقائق الشريعة ومعرفة مقاصدها، فقد يتوهم الإنسان أمراً ويتمادى فيه حتي يصبح عنده حقيقة ثابتة لا تقبل النقاش ولا الاعتراض، أما الهوى وشهوة الإرادة النفسية فناتجة عن سيطرة حب الدنيا علي الإنسان، والبحث عن اللذات الدنيوية، فالإنسان إذا لم يتحرر من سلطان هذه الشهوات وينعتق من أسرها؛ فسيصبح أسيراً للأفكار المنحرفة والاتجاهات الضالة، ويسعى لخدمة غرضه عبر استنباط الأحكام بما يوافق هواه.

إن من فوائد العلم التخلص من ظلام الجهل وضرره، والتحرر من قيود الهوى وسلطانه، ولا يتأتى هذا إلا إذا تحقق الإنسان بالتقوى وخشية الله ومراقبته، ليجعل الله له فرقانا يميز به الصالح من الفاسد، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، الانفال: ٢٩، "وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد يميز به بين الصحيح والفاسد والحق والباطل والهدي والضلال

---

[٣] صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، علاء الدين الفارسي، مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، ط٢ ،١٩٩٣م، ج١، ص ٢٨٢، حديث رقم ٨١، وانظر تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء اسماعيل ابن كثير، مكتبة الصفا، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٤م، ج٣، ص ٢٩٩.

والغي والرشاد، ويمده حسن القصد وتحري الحق وتقوي الرب في السر والعلانية ، ويقطع مادته اتباع الهوي وإيثار الدنيا وطلب محمدة الخلق وترك التقوي"[٤]، وهذه حقيقة أكدت عليها نصوص التشريع ولا مجال لبسطها هنا، لكن من المهم القول إنه "ينبغي أن يدفع المعني المستنبط المكلف إلى كسر طوق الشهوة والاستسلام للهوي، ويدفعه طوعاً إلى أن يكون عبداً لله تعالي، ويعلمه حسن الاستسلام لله ورسوله الأمين، ويزيده إيماناً وخشوعاً، أما المعني المستنبط الذي يحمل في طياته شبهات وإشكالات فليس من الاستنباط الصحيح في شيء"[١]

---

[٤] إعلام الموقعين عن رب العالمين، ج٢، ص١٦٥

[١] الإمام الشاطبي وجهوده في ضبط الخلاف الفقهي، أ. د. صالح الزنكي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، مصر،٢٠١٠م، ص١٢

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، فقد تناول هذا البحث موضوع ضوابط الاستنباط في السيرة النبوية، وقد أظهر البحث العلاقة الوثيقة بين القرآن الكريم وتفسيره وبين السيرة النبوية، وكذلك أوضح العلاقة بين السنة والسيرة، وأن السنة الصحيحة احتوت على كثير من معلومات السيرة، كما اتضح فيه أهمية منزلة السيرة النبوية في استنباط الأحكام، وتم ذلك من خلال تعريف الاستنباط وبيان مشروعيته، وكيف دعا القرآن الكريم لعملية الاستنباط ومكّن لها، ثم بيّن البحث الضوابط التي يمكن أن تضبط بها عملية الاستنباط من السيرة النبوية، وتمثلت في ضرورة البحث عن صدق الخبر وثبوته، والاحتكام لمقاصد الشريعة العامة، ومعرفة مراتب فعل النبي ﷺ، وضرورة استصحاب قدر النبي ﷺ ومكانته الخاصة عند ربه عند عملية الاستنباط، وأخيراً ضرورة التجرد عن سلطان الهوي وشهوة الإرادة، ولا يزال هذا الموضوع في حاجة إلى مزيد من الدراسة والتوسع، ذلك أن علم فقه السيرة علم يجسد حيوية هذا الدين، واستمرار صلاحيته على مر الأيام، ومن أهم النتائج التي توصل لها البحث:

١- تعددت مصادر السيرة النبوية وتفاوتت في الرتبة، فأعلاها وأقواها ما جاء في القرآن الكريم، ثم ما جاء في السنة الصحيحة وهكذا.

٢- السيرة النبوية محل صالح لاستنباط الأحكام في مختلف المجالات، والاستنباط لا بد أن يحكم بضوابط واضحة.

٣- تشدد العلماء في الروايات التي تتعلق بالأحكام من ناحية السند، وتساهلوا في الأخبار وفضائل والأعمال.

٤- تعرض بعض العلماء الأوائل لمسألة الاستنباط من السيرة النبوية، وأبرزهم جهدا ابن القيم.

٥- نشطت في العصر الحاضر حركة علمية واسعة لاستنباط الأحكام من السيرة النبوية في مختلف المجالات، وتعددت مناهجها في هذا الشأن.

٦- من أهم الضوابط التي تضبط بها عملية الاستنباط من السيرة النبوية، البحث عن صدق الخبر وثبوته، والاحتكام لمقاصد الشريعة العامة، ومعرفة مراتب فعل النبي ﷺ، وضرورة استصحاب قدر النبي ﷺ ومكانته الخاصة عند ربه عند عملية الاستنباط، وأخيراً ضرورة التجرد عن سلطان الهوى وشهوة الإرادة.

التوصيات:

١- ضرورة تطوير البحث في ضوابط الاستنباط من السيرة النبوية.

٢- إجراء مزيد من الدراسات التي تربط بين السيرة والقرآن الكريم والسنة النبوية.

٣- دراسة مناهج العلماء في التعامل مع أخبار السيرة النبوية سندا ومتناً.

المراجع:

١. الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية، ١٩٧٤م

٢. الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس القرافي (ت ٦٨٤)،

تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط ٢، ١٩٩٥م

٣. إسماعيل البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دار اليمامة، دمشق، ط٥، ١٩٩٣م

٤. إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، دار ابن الجوزي، السعودية، ط١، ١٤٢٣هـ

٥. أفعال الرسول ودلالتها على الأحكام الشرعية، د. محمد الأشقر، مؤسسة الرسالة، ط ٥، ١٩٩٦م

٦. الإمام الشاطبي وجهوده في ضبط الخلاف الفقهي، أ. د. صالح الزنكي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، مصر، ٢٠١٠م

٧. أهمية المقاصد في الشريعة الإسلامية وأثرها في فهم النص واستنباط الأحكام، د. سميح عبد الوهاب الجندي، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م

٨. البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ

٩. تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد مرتضى الحسيني الزَّبيدي، تحقيق: مجموعة من العلماء، وزارة الإرشاد والأنباء، والمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠٠١م

١٠. التاريخ عن أبي زكريا يحيى بن معين –رواية الدوري عنه، أبو زكريا يحيى بن معين، تحقيق: الدكتور أحمد محمد نور سيف،

مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ط١، ١٩٧٩م

١١. تدبر القرآن الكريم، سلمان بن عمر السنيدي، الرياض، ط٢، ٢٠٠٢م، ص١١

١٢. تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م

١٣. تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد بن علي رضا (ت ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م،

١٤. تفسير المراغي، الشيخ أحمد المراغي، مطبعة مصطفي الحلبي، الطبعة الأولي ١٩٤٦م

١٥. تهذيب الأسماء واللغات، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت

١٦. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، أحمد البردوني وإبراهيم أطفي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م

١٧. الدرر الغالية في آداب الدعوة والداعية، عبد الحميد بن باديس، (ت ١٣٥٩هـ)، دار المنار للنشر والتوزيع، الرياض

١٨. دلائل النبوة، د.عبد الحليم محمود، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ،١٩٩١م

١٩. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت ١٢٧٠هـ)، علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ

٢٠. الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، بو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (ت ٥٨١هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ

٢١. زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط ٢٧، ١٩٩٤م

٢٢. سنة الله في جهاد رسول الله، د. رشيد كهوس، دار الحكمة للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ٢٠١٢م

٢٣. السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د. مهدي رزق الله أحمد، مطبعة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط١، ١٩٩٢م

٢٤. السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٥م، تحقيق: طه عبد الرازق سعد: ص٥.

٢٥. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤هـ)، دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٨م

٢٦. الصارم المسلول على شاتم الرسول، أحمد بن تيمية، ١٩٨٣م

٢٧. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، علاء الدين الفارسي، مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، ط٢ ،١٩٩٣م

٢٨. صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دار اليمامة، دمشق، ط٥، ١٩٩٣م

٢٩. صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت٢٦١ هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٩٥م

٣٠. طبقات الشافعية، عبد الوهاب السبكي، دار إحياء الكنب العربية، د ط، د ت.

٣١. العجالة السنية على ألفية السيرة النبوية، زين الدين محمد عبد الرؤوف المناوي (ت ١٠٣١هـ)، تحقيق: دار الكتب العلمية، بيروت

٣٢. فتح الباري بشرح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، المكتبة السلفية، مصر، ط١، ١٣٩٠هـ

٣٣. فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط١١، ١٩٩١م

٣٤. علاقة السيرة النبوية بالسنة، عبد الهادي الخمليشي، مجلة الواضحة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار الحديث الحسنية للدراسات الإسلامية العليا، العدد: ٨، من ص ٧٧-١١٥.

٣٥. القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم، الحسن بن مسعود اليوسي (ت ١١٠٢هـ)، تحقيق: حميد حماني، مطبعة سالا، الرباط، ط١، ١٩٩٨م

٣٦. الكشاف، جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري (٥٣٨هـ)، دار الريان للتراث، القاهرة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٩٨٧م

٣٧. الكفاية في علم الرواية، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ)، جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط١، ١٣٥٧هـ

٣٨. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الكفوي (ت ١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش –محمد المصر، مؤسسة الرسالة، بيروت

٣٩. لسان العرب، محمد بن مكرم بن على ابن منظور (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ

٤٠. مجموع الفتاوى، أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم رحمه الله، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، السعودية، ٢٠٠٤ م

٤١. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ

٤٢. مصادر السيرة النبوية بين المحدثين والمؤرخين، د. عبد الرازق هرماس، جائزة نايف بن عبد العزيز آل سعود، السعودية، ط١، ٢٠٠٧م.

٤٣. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.

٤٤. مفاتيح الغيب، أبو عبد الله محمد بن عمر الملقب بفخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ

٤٥. المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ

٤٦. المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (ت ٦٥٦ هـ)، تحقيق: محيي الدين ديب ميستو وآخرين، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط ١، ١٩٩٦م
٤٧. مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة التشريعية، د. محمد سعد اليوبي، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٩٩٨م
٤٨. مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، علال الفاسي، دار الغرب الإسلامي، ط٥، ١٩٩٣م.
٤٩. مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (١٣٩٣هـ)، تحقيق: محمد الحبيب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ٢٠٠٤م
٥٠. منهج النقد في علوم الحديث، الدكتور نور الدين عتر، دار الفكر، دمشق، ط٣، ١٩٨١م
٥١. الموافقات، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي (ت ٧٩٠هـ)، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، السعودية، ط١، ١٩٩٧م
٥٢. المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، عبد القادر الجزائري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م